



تعتبر روسيا من أشهر بلاد العالم في ألعاب السيرك، إن لم تكن أشهرها على الإطلاق، نظراً لما تتميز به عروضها التي تطوف الشرق والغرب، من فقراتٍ ترفيهيةٍ منوعةٍ، ومهرجين وسحرة وحيوانات ضاربة مدربة، وما إلى ذلك من مشاهد بصرية تخطف أباب الصغار، وتتنوع إعجاب الكبار، وغير ذلك من ألعاب قوامها السحر والإبهار، والإثارة والتشويق، بما في ذلك المشي بخفةٍ ورشاقةٍ على الحبال.

وأحسب أن مسمى "المناطق منخفضة التوتر"، تلك الصيغة التي أملتها روسيا في اجتماع أستانة الرابع، ووقعت عليها كل من تركيا وإيران، وبمعزل عن ممثلي نظام الأسد ووفد الفصائل المعارضة، فيه شيءٌ كثيرٌ من أوجه التشابه مع استعراضات ألعاب السيرك الروسية التقليدية، وذلك لما تنطوي عليه هذه اللعبة السياسية المطورة من خصائص وسمات، مستلهمة من فنون السيرك، لا سيما التهريج والمشي على الحبال، ناهيك عن البهلوانيات المثيرة للضحك في بعض الأحيان. إذ بعد نحو ثمانية عشر شهراً من التكتيكات الوحشية الروسية في الأجواء السورية المستباحة، ووصول هذا التدخل الذي أخل بالتوازنات على الأرض، إلى نقطة استعصاء سياسية حادة، تنذر بفشلٍ قد لا يطول أوان حصاده، عمدت موسكو إلى إعادة تقديم بضاعتها البائرة بغلافٍ جديدٍ، يحمل اسمًا آخر أكثر جاذبية، لعل هذه المناورة التكتيكية تنجح في حمل المستهلكين السذج على شراء المنتج المغلف بعبوةٍ جميلةٍ، تلفت أنظار المتسوقين للوهلة الأولى.

بكلام آخر، الرياح التي ظلت، طوال الوقت، تهب في صالح أشرعة السفينة الروسية المبحرة في أعلى المياه الدافئة، توقفت فجأة هكذا، بعد الغارة الكيميائية على بلدة خان شيخون، ثم عكست اتجاهها بشدة، إثر الغارة الصاروخية الأميركية على

مطار الشعيرات الذي انطلقت منه الطائرات السورية المحملة بغاز السارين، الأمر الذي وجدت معه موسكو نفسها متورطةً داخل مجلس الأمن وخارجـه، في الدفاع عن نظام يواصل مقارفة استخدام السلاح المحرّم دولياً، ولا يعبأ كثيراً بثأرة حفيظة المجتمع الدولي.

على الرغم من محدودية ضربة صواريخ التوما هوك البالستية، وهي الضربة الأميركيـة الأولى من نوعها ضد النظام السوري، عن نيةٍ علنيةٍ وقصدٍ مسبق، إلا أن الدويـيـ الهائل لتلك الصواريخ المجنحة سمع في موسكو على نحو جيد جداً، وقرأها الجنرالـات الروس على أنها ضربة لكريـاء "القوات الجوية القضـائية" الروسـية التي أبلـت بلـاء حسـناً ضد المستشفيـات ومرـاكـز الدفاع المدنيـيـ، وغيرها من الأهداف المدنـية، في عمـوم المناطـق السورية المحرـرة من قبـضة الأسدـ والمليـشـيات الإـيرـانـية.

ومن وحي ألعـاب السـيرك الـكلاسيـكيـة، ومفاهـيمـهـ القـائـمةـ علىـ خـفـةـ الـيدـ المـبـهـرـةـ، والمـشـيـ علىـ الـحـيـالـ بـبرـاعـةـ، نـاهـيـكـ عنـ التـهـريـجـ، وـماـ إـلـىـ ذـلـكـ منـ أـلـعـابـ وـاسـتـعـراـضـاتـ أـخـرىـ شـهـيرـةـ، تـفـتـقـتـ الـذـهـنـيـةـ المـافـيـاوـيـةـ القـابـعـةـ فيـ الـكـرـمـلـينـ، عنـ حـيـلـةـ جـديـدةـ، قـوـامـهاـ إـعادـةـ تـقـدـيمـ الـبـضـاعـةـ الـتـيـ لمـ يـُـقـبـلـ عـلـيـهـ سـوـىـ الـذـيـابـ، بـحـلـةـ جـديـدةـ قـشـيـبـةـ، وـأـرـفـقـتـهـ بـحـمـلـةـ تـروـيـجـيـةـ وـاسـعـةـ، لـعـلـ أـرـبـابـ الـقـوـةـ الـشـرـائـيـةـ الـكـبـيـرـةـ فـيـ واـشـنـطـنـ، يـقـبـلـونـ عـلـىـ التـهـامـ هـذـاـ الطـعـمـ، كـسـمـكـةـ جـائـعـةـ.

لـإقـنـاعـ الزـبـائـنـ الـمحـتمـلـينـ فـيـ الـعـاصـمـةـ الـأـمـيرـكـيـةـ بـهـذـاـ العـرـضـ الـمـفـخـخـ، شـدـ وزـيـرـ الـخـارـجـيـ الـرـوـسـيـ، سـيرـغـيـ لـافـروفـ، مـنـ عـهـدـ الـحـرـبـ الـبـارـدـ، رـحـالـهـ إـلـىـ الـبـيـتـ الـأـبـيـضـ، بـعـدـ غـيـابـ دـامـ نـحوـ أـربعـ سـنـوـاتـ مـتـواـصـلـةـ، حـامـلاـ فـيـ حـقـيـبـتـهـ مـلـفـ "الـمـنـاطـقـ منـخـفـضـةـ التـوـترـ"، فـبـداـ بـذـلـكـ كـرـجـلـ عـلـاقـاتـ عـامـةـ، أـخـذـ عـلـىـ عـاـنـقـهـ تـسـوـيـقـ مـنـتجـ لـمـ يـشـتـرـهـ سـوـىـ الـإـيرـانـيـينـ، فـيـمـاـ طـلـبـ الـمـسـتـهـلـكـوـنـ الـمـحـتمـلـوـنـ فـيـ الـإـقـلـيـمـ، وـمـنـهـمـ الـأـتـرـاكـ خـصـوصـاـ، تـقـدـيمـ خـصـومـاتـ مـجـزـيـةـ، لـعـلـ ذـلـكـ يـسـاعـدـهـمـ عـلـىـ قـبـولـ الـعـرـضـ، وـمـنـ ثـمـةـ الـانـخـراـطـ فـيـ الـلـعـبـةـ.

وـبـغـضـ النـظـرـ عـنـ الشـيـاطـيـنـ الـكـامـنـةـ فـيـ قـلـبـ التـفـاصـيلـ غـيرـ المـكـتـوـبـةـ بـعـدـ، وـشـدـةـ الـالـتـبـاسـاتـ الـمـحـيـطـةـ بـمـاهـيـةـ الـمـنـاطـقـ الـأـرـبـعـ الـمـقـرـرـةـ، فـإـنـ جـوـهـرـ ماـ اـنـطـوـيـ عـلـيـهـ هـذـاـ عـرـضـ غـيرـ القـابـلـ لـلـتـطـبـيقـ، حـتـىـ وـإـنـ توـفـرـ عـنـصـرـ حـسـنـ النـيـةـ، يـتـرـكـّـ فـيـ نقطـتينـ أـسـاسـيـتـيـنـ: الـأـوـلـىـ اـنـتـزـاعـ إـقـرـارـ دـوليـ باـعـتـارـ مـسـارـ أـسـتـانـةـ مـرـجـعـيـةـ بـدـيـلـةـ، أـوـ أـقـلـهـ موـازـيـةـ لـمـسـارـ جـنـيـفـ، الـأـمـرـ الـذـيـ يـمـكـنـ مـوـسـكـوـ مـنـ إـمـساـكـ بـكـلـ خـيـوطـ الـلـعـبـةـ بـمـوـافـقـةـ أـمـمـيـةـ. وـالـثـانـيـةـ الـحـفـاظـ عـلـىـ نـظـامـ بـشـارـ الـأـسـدـ فـيـ الـسـلـطـةـ، كـوـنـ الـمـسـارـ الـذـيـ اـسـتـحدـثـتـهـ رـوـسـيـاـ فـيـ الـعـاصـمـةـ الـكـاخـسـتـانـيـةـ لـاـ يـتـرـقـ إـلـىـ مـسـأـلـةـ الـحـكـمـ الـاـنتـقـالـيـ الـمـنـصـوـصـ عـلـيـهـ فـيـ قـرـاراتـ مـجـلسـ الـأـمـنـ الـمـعـنـيـةـ، الـجـارـيـ تـداـولـهـاـ فـيـ مـسـارـ جـنـيـفـ الـبـطـيءـ وـالـمـتـعـثـرـ.

وـمـعـ أـنـ مـسـارـ أـسـتـانـةـ لـمـ يـجـابـهـ باـعـتـراـضـاتـ جـديـةـ مـنـ جـانـبـ الـدـوـلـ وـالـأـطـرـافـ الـمـخـاطـبـةـ بـهـ، كـوـنـهـ يـسـعـيـ إـلـىـ الـحدـ مـنـ لـهـيـبـ الـكـارـثـةـ الـسـوـرـيـةـ، وـذـلـكـ مـاـ لـاـ يـصـحـ الـاعـتـراـضـ عـلـيـهـ بـتـاتـاـ، إـلـاـ أـنـ هـذـاـ مـسـارـ الـذـيـ "صـنـعـ فـيـ رـوـسـيـاـ" لـمـ يـلـقـ التـرحـيبـ، الـمـأـمـولـ بـهـ مـنـ الـوـلـاـيـاتـ الـمـتـحـدـةـ، وـهـيـ الـغـائـبـ الـحـاضـرـ عـلـىـ مـجـرـيـاتـ الـمـأسـاةـ الـسـوـرـيـةـ حـتـىـ الـأـمـسـ الـقـرـيبـ، حـتـىـ لـاـ نـقـولـ اـعـتـراـضـهـاـ مـنـ حـيـثـ الـمـبـدـأـ عـلـىـ تـأـهـيلـ إـيـرانـ وـإـعادـةـ اـعـتـمـادـهـاـ طـرـفـاـ إـقـلـيـمـيـاـ مـشارـكاـ فـيـ صـنـعـ الـحـرـبـ وـالـسـلـامـ، وـهـذـهـ نـقـطةـ ضـعـفـ تـكـوـينـيـةـ فـيـ الـعـرـضـ الـرـوـسـيـ، قـدـ تـشـكـلـ، فـيـ مـبـدـئـهـاـ وـخـبـرـهـاـ، ضـرـبـةـ مـمـيـتـةـ لـكـلـ هـذـهـ الـبـهـلوـانـيـاتـ الـرـوـسـيـةـ الـمـكـشـوفـةـ.

إـزـاءـ ذـلـكـ كـلـهـ، مـنـ الـمـرجـحـ، بـصـورـةـ قـوـيـةـ، أـنـ تـتـحـولـ لـعـبـةـ أـسـتـانـةـ الـمـغـشـوشـةـ، إـنـ لـمـ نـقـلـ الـمـلـفـقـةـ مـنـ أـلـفـهـاـ إـلـىـ يـائـهـاـ، إـلـىـ مـأـزـقـ روـسـيـ مـسـتـحـكـمـ، إـذـاـ كـفـتـ فـصـائـلـ الـمـعـارـضـةـ الـسـوـرـيـةـ، أـوـلـاـ، عـنـ الـانـسـيـاقـ فـيـ هـذـهـ الـلـعـبـةـ الـمـاجـنـةـ، وـأـوـقـفـتـ اـنـخـراـطـهـاـ فـيـ هـذـاـ الـمـسـارـ مـسـدـودـ الـنـهـاـيـةـ، إـذـاـ نـأـتـ الـوـلـاـيـاتـ الـمـتـحـدـةـ، ثـانـيـاـ، بـنـفـسـهـاـ عـنـ اـبـلـاعـ طـعـمـ الـسـتـارـةـ الـرـوـسـيـةـ الـمـسـمـوـمـ، وـمـضـتـ نـحـوـ خـيـارـاتـهـاـ الـبـدـيـلـةـ، وـنـعـنـيـ بـذـلـكـ خـيـارـ الـمـنـاطـقـ الـآـمـنـةـ، مـعـاـلـاـ مـوـضـوعـيـاـ أـكـثـرـ رـاجـحـةـ مـنـ مـنـطـقـ "الـمـنـاطـقـ قـلـيلـةـ التـوـترـ".

سبق لكاتب هذه السطور أن توقع، بعد الجولة الثانية من مفاوضات محطة أستانة، ومن على هذا المنبر، باحتمالية تحول مسار هذه المحطة إلى "كعب آخيل" فلاديمير بوتين، ولسياساته الانكشارية في سوريا، وإن هذا التحول قد يحدث في أي لحظة، بعد أن انتهى عهد الرخاوة الأميركية، وعادت قرون الاستشعار شديدة الحساسية تعمل لدى "المؤسسة" في واشنطن، تجاه طموحات موسكو المبالغ بها، الساعية إلى وراثة الأمجاد السوفياتية، بما في ذلك استرداد مكانة الدولة العظمى قبلة الدول الأعظم.

العربي الجديد

المصادر: